

تفسير ابن كثير

قال الصحاك عن ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما كان اسمه تارح رواه ابن أبي حاتم وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عامر التبلي حدثنا أبي حدثنا أبو عاصم شبيب حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر } يعني بآزر الصنم وأبو إبراهيم اسمه تارح وأمه اسمها مثاني وامرأته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارح وقال مجاهد والسدسي : آزر اسم صنم قلت : كأنه غالب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فـ أعلم وقال ابن جرير وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم ومعناه معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد وقد قال ابن أبي حاتم : ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر } قال : بلغني أنها أعوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام ثم قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ثم أورد على نفسه قول النسابيين أن اسمه تارح ثم أجاب بأنه قد يكون له أسمان كما لكثير من الناس أو يكون أحدهما لقبا وهذا الذي قاله جيد قوي وـ أعلم واختلف القراء في أداء قوله تعالى : { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر } فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدنى أنهما كانوا يقرآن { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلها } معناه يا آزر أتتخذ أصناما آلها وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعمى لا ينصرف أيضا كأحمر وأسود فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولا لقوله { أتتخذ أصناما } تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصناما آلها فإنه قول بعيد في اللغة فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام كذا قرره ابن جرير وغيره وهو مشهور في قواعد العربية والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلها ؟ } أي أتتاله لصنم تعبده من دون الله { إني أراك وقومك } أي السالكين مسلكك { في ضلال مبين } أي تائهي لا يهتدون أين يسلكون بل في حيرة وجهل وأمركم في الجحالة والضلالة بين واضح لكل ذي عقل سليم وقال تعالى : { واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فا تبعني أهدك صراطًا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ف تكون للشيطان ولها * قال أراغب أنت عن آلته يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربِّي إنه كان بي حفيها * وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعُ ربِّي عسى أن لا أكون بداعِ ربِّي شقيا } فكان

إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبيين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه كما قال تعالى : { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيين له أنه عدو تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم } وثبت في الصحيح أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيمة فيقول له آزر يابني اليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزي من أبي الأبعد فيقال يا إبراهيم انظر ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار قوله { وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض } أي نبين له وجه الدلاله في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله في ملكه وخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه قوله { قل انظروا ماذا في السموات والأرض } وقال { أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد مني } وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدوي وغيرهم قالوا : واللطف لمجاهد : فرجت له السموات فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن وزاد غيره يجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم فقال الله إني أرحم بعبادي منك لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا وروى ابن مردويه في ذلك حدثيين مرفوعين عن معاذ وعلى ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله { وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ول يكون من الموقنين } فإنه تعالى جلا له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنب قال الله إنك لا تستطيع هذا فرده كما كان قبل ذلك فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عيانا ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة كما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام [أتاني ربي في أحسن صورة فقال يا محمد فيما يختص الملأ الأعلى ؟ فقلت لا أدرى يا رب فوضع بيده بين كتفيه حتى وجدت برد أنا ملئه بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك] وذكر الحديث قوله { ول يكون من الموقنين } قيل الواو زائدة تقديره وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ول يكون من الموقنين قوله { وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين } وقيل بل هي على با بها أي نريه ذلك ليكون عالما وموقنا قوله تعالى : { فلما جن عليه الليل } أي تغشاه وستره { رأى كوكبا } أي نجما { قال هذا ربي فلما أفل } أي غاب قال محمد بن إسحاق بن يسار : الأفول الذهاب وقال ابن جرير : يقال : أفل النجم يأفل ويأفل أفولا وأفلا إذا غاب ومنه قول ذي الرمة : . مصابيح ليست باللواتي تقودها دياج ولا باللافلات الزوابيل .

ويقال : أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا قال { لا أحب الأفلين } قال قتادة : علم أن

ربه دائم لا يزول { فلما رأى القمر بازغا } أي طالعا { قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدني ربى لأكون من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى } أي هذا المنير الطالع ربى { هذا أكبر } أي جرما من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة { فلما أفلت } أي غابت { قال يا قوم إنني بريء مما تشركون * إنني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين } أي أخلصت ديني وأفردت عبادتى { للذى فطر السموات والأرض } أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق { حنيفا } أي في حال كونى حنيفا أي مائلا عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال { وما أنا من المشركين } وقد اختلف المفسرون في هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير : من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا بقوله { لئن لم يهدني ربى } الاية وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمرود بن كنعان لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه فأمر بقتل الغلام عامئذ فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب طاهر البلد فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك وذكر أشياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف والحق أن إبراهيم كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة وهي : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة وبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمala ولا تملك لنفسها تصرفها بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأ بصار فيه ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ومثل هذه لا تصلح للإلهية ثم انتقل إلى القمر وبين فيه مثل ما بين في النجم ثم انتقل إلى الشمس كذلك فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأ بصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع { قال يا قوم إنني بريء مما تشركون } أي أنا بريء من عبادتهم وموالاتهم فإن كانت آلة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون { إنني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين } أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدارها ومدبرها الذي بيده ملکوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه كما قال تعالى : { إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في

ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين } وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه { ولقد آتينا إبراهيم رشه من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التمثال التي أنتم لها عاكفون } الآيات وقال تعالى : { إن إبراهيم كان أمة قانتا الله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهذا إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين } وقال تعالى : { قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً فيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين } وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [كل مولود يولد على الفطرة] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [قال الله إني خلقت عبادي حنفاء] وقال الله في كتابه العزيز { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله } وقال تعالى : { وإن أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت ربكم ؟ قالوا بلى } ومعناه على أحد القولين قوله { فطرة الله التي فطر الناس عليها } كما سيأتي بيانه فإذا كان هذا في حق سائر الخلية فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا الله حنيفاً ولم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسمحة المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى